دراسات فى جولات

حيث يكفلون الأطفال

للأستاذ محمد عبد الكريم

رابطة الاصلاح الاجتماعى :

وجدت رابطة الاصلاح حلا عمليا وعلاجا مباشرا لمشكلة الطفولة إذ رأت أن تقيم دورا تكفل فيها أطفال الفقراء بين الثالثة والسادسة وابتغت فيما أتاها الله من قوة تلافى كل ما ينقص الصغار صحتهم وعقولهم ونفوسهم وقد بدأت عملها باقامة دار بالعاصمة وشرعت فى إقامة ثانية وهى تعتزم فى منهاجها تعميم هـذه قدر مايتيسر لهـا من عون مالى وأدبى . لذلك حق علينا قبل أن نعالج مشكلة الطفولة المشردة أن نعرض لعمل الرابطة وأن نجلو مااستطعنا ما تقوم عليه هذه الدور لنسبر مدى تحقيقها للغاية التى أعدت من أجلها ثم نتبين فى ضوء تلك التجربة طريقنا إلى حل هذه المشكلة وما ينبغى أن يقوم عليه العلاج .

فى دار كفالة الطفل :

وهناك بحى جزيرة بدران فى شارع ضيق غفلت عنـه عين التنظيم شأنها دواما حيـال الأحياء الفقيرة ، سرت أبحث وأفتش ، أتأمل لوحات الدور حتى إذ بلغت غاية الطريق استرقت سمعى جبهة غير صاخبة ، أصوات عذبة رخيمة تنبعث من كرمة قديمة تبينت فى لوحتها غايتى ووجدت بها ضالتى .

ولم أكد أعدو مدخل الدار وأشهـد ما وراءه حتى تراجعت وتقاعست وعدت أتأمل اللوحة فأكذب لغرابة ما ترى عينى أحقا هؤلاء هم أطفال الشوارع وأبناء المعدمين أم هى روضة أطفال ذوى السعة أولاد الموسرين . .

أطفال كالزهر اليانع ، وجوه ناضرة ، وبشرات صافية ، وأجسام تم حركتها الدائمة عن قوة كامنة وفتوة مكنونة ، هذا صغير يشع الذكاء فى عينيه ، وتلك صبية صغيرة ، تخطر اليك فى حيـاء ظاهر ، يفتر ثغرها عن ابتسامة حلوة فيها الأمل وفيها الرجاء ، وذلك طفل فى الثالثة يسارع اليك وهو لا يكاد يحسن مشيته حتى اذا بلغك ألقى بصدره على يديك ، تارة يتعلق بأهداب سترتك وطورا يحتضن بذراعيـه ساقيك ، ولا عجب فهو يتيم يرى فيك أبا حرم حبه وفقد فى فجره الباكر عطفه وحدبه .

وصحبتني الناظرة الفاضلة والأستاذ سيد مصطفى كاتم سر الرابطة الى داخل البناء فاذا بي في جو يخالف ما ألفت في جولاتي بمثل هذه المؤسسات ، جو عائلي و بيئة منزلية وكأني بالأطفال بين أهليهم ، هذه معلمة جمعت حولها فريقا من الصغار تقص عليهم القصص ، وتلك خادمة تخلع عن البعض ملابسهم لتلبسهم حللا نظيفة ، وثانية تعد الطعام وثالثة تغسل الملابس والكل يعمل للأطفال ويخدمهم خدمة من حلنهم في بطونهن وأخرجتهم من ترائبهن .

وانتقلنا الى حجرات الدراسة فحضرنا درسا في المطالعة وآخر في الألعاب حتى اذا حان وقت الظهر وتناول الأطفال غذاءهم انتظموا في الردهة يغنون وينشدون ويعالجون بأيديهم الصغيرة بعض أدوات الموسيقى .

كيف يسير مشروع الرابطة :

وفي حديقة الدار بين زرع أنبتته عناية الصغار وازدهر بسقايتهم ، جلست الى حضرة الأميرالاى مصطفى بك عبد القادر الذي يشرف من قبل الرابطة على الدار ، جلست أجتلي خطة الدار وأستبين حالة سيرها .

واستهللت الحديث بسؤال حضرته عن منهاج الرابطة في أمر الأطفال المهملين فقال :

لقد لمست الرابطة ما يلقاه أطفال الفقراء من آلام وما يتعرضون له في بيئتهم الفاسدة من مؤثرات بسبب فقر ذويهم وعجزهم عن تزويدهم بما يكفل لهم صحة الجسم وسلامة العقل وحسن الخلق ، لذلك ، أعددنا مشروع دور الكفالة وبدأنا عملنا بهذه الدار التي تراها ونحن لا نقصر جهدنا بهذا العمل على خدمة الأطفال فحسب بل نعنى كذلك بأمر البيئة التي يأوي اليها الأطفال ، فترى الاخصائية الاجتماعية على صلة دائمة بآباء الأطفال وأمهاتهم ترشدهم الى أصول التربيب ، وتحمل كذلك اليهم من فيض المتبرعين ما يسد بعض ما يفتقرون اليه من كساء أو غذاء .

ثلاثون قرشا :

واستطرد محدثي الفاضل في حديثه فقال : نعم ثلاثون قرشا تلك التي يتكلفها غذاء الطفل عندنا في الشهر ذلك بأن الدار تستعين بجهود رجالها في تدبير الكثير من مؤونة الأولاد كذلك تجد من أريحية بعض التجار ما يهون لها غايتها ، فالسيد " بنه " الخباز يمد الأطفال بخمس أقات من الخبز كل يوم والسيد " شاهين " يزودهم بالصابون ، ويجود البعض بين حين وحين بكثير من النافع المفيد .

والحق أن الدار قد وفقت فى هذا كل التوفيق وكم وددنا لو ذكر أغنياؤنا هذا وعلموا أنهم بثلاثين قرشا هى ثمن تذكرة لدار خياله يطعمون طفلا شهرا كاملا ويعينونه على العيش فى بيئة صالحة يجد فيها ما يهيئ له أجمل حاضر وآمن مستقبل لو ذكر القادرون ذلك لما رأينا شريدا ولحلت مشكلة الطفولة المهملة التى باتت تهدد بشر مستطير .

مكانة الطفل

يقول جون ديوى " إن الأمة الرشيدة هى التى يجد صغارها فى كل رجل من رجالها أبا يعاونهم وفى كل سيدة أما تحنو عليهم . . " ولاغرو فمن هؤلاء الصغار تقوم دولة الغد، واذا كان القادرون من الآباء سيقفون جهودهم على رعاية من أخرجوا من أصلابهم دون اهتمام بهذا الصغير الفقير الذى فقد والديه أو أهمل لاملاق أبويه ، نقول إذا غفل القادرون عن حق هذا المحروم فانما يعدون باهمالهم جيلا خاملا فاسدا يضعف بنيان الأمة ويهدد أمنها

فطن المفكرون فى كل العصور لأمر الطفل وقدروا خطره وعملوا على العناية به فبعد أن كان الطفل فى دولة الرومان يباع ويقتل أو يهمل دون زاجر ولا رادع رأيناه يسمو بسمو العقول ويرقى برقى المدينة وشهدنا الفلاسفة والكتاب كروسو وهيجو وفيليكس توما فى فرنسا وجون ديوى وهرمان فرانك فى انجلترا وفرديل وهربارت فى المانيا وبنيامين فرانكلين فى أمريكا شهدنا هؤلاء كما رأينا غيرهم يهبون داعين الى العناية بالطفل منذرين بما يجره اهماله من خطر على الأمم وهدم لكيان الجماعات .

ولقد كان من أثر هذه الصيحات المتوالية أن تنبهت حكومات الغرب الى خطر الطفل فقامت منذ بداية القرن التاسع عشر تسن الشرائع لرعاية الطفولة وتصدر القوانين المختلفة لحماية الأطفال المهملين ومن فى حكمهم من أيتام ولقطاء .

عناية الغربيين بالطفولة المهملة :

ولقد صحبت تلك الشرائع جهود خاصة للأفراد والهيئات فرأينا جماعات عديدة فى كافة الأقطار تقوم لرعاية الطفل وحمايته والسهر على تنشئته تنشئة سليمة — وشهدنا المؤتمرات الدولية التى يرجع أولها الى عام ١٨٨٣ .

على أن العناية بالطفل لم تبلغ يوما ما بلغته عقب الحرب العالمية الماضية حيث أثارت كثرة أيتام الحرب مسألة الطفولة المهملة ، فهبت الجمعيات الدولية تعمل دائبة حتى تمكنت بنشاطها من ان تجمع ملايين من الجنيهات أنشأت بها مراكز فى أكثر المدن لحماية الطفولة المشردة .

وفى عام ١٩٢٨ عقد فى باريس أكبر مؤتمر دولى للطفولة وذلك بعناية اتحاد رعاية الأطفال الدولى والاتحاد العالمى للطفولة وجمعية الصليب الأحمر وتلاه مؤتمر آخر فى بروكسل لهذا الغرض عام ١٩٣٥ .

أما ما أعدته الحكومات الغربية لحماية الطفل فلا يدخل تحت حصر وحسبك أن تعلم أن كل شعوب الأرض تفرد إدارة كبيرة خاصة بالطفل قد تصل الى مرتبة الوزارة . وكم وددنا لو لقى أطفالنا المهملون من عطف حكومتهم بعض ما يلقاه نظراؤهم فى غير مصر . نحن لا ننكر تلك الجهود التى تبذلها الحكومة فى هذه الآونة لحماية الطفل ولا ذلك الاهتمام الذى تلقاه مشكلة الطفولة المشردة من المشتغلين بقضية الاصلاح ، فلدينا جماعات ناشئة تعمل فى هذا السبيل عملا يبشر بالخير ، فعلاوة على جهود رابطة الاصلاح نرى مبرة محمد على تعنى بأمر الطفل إذ تنشئ للأطفال مستوصفا خاصا وتعد للطفل دارا تسميها " مهد الطفل " وان كانت هذه الدار لم تعمر بالأطفال حتى اليوم بسبب تحويلها الى مستشفى ، كذلك نجد جمعية الطفولة المشردة تسعى فى هذا السبيل وتعد نواة عملها ملجأ للصغار بحى الحلمية . غير أننا نرى أن هذه الجهود ضئيلة وهى فى حاجة الى تشجيع الحكومة والأهلين حتى تثمر الثمر المرجو منها .

تشرد الطفل ، أسبابه وعلاجه :

إن أكبر ما يؤخذ على المشتغلين بقضية الطفل فى هذا البلد أن جهودهم منصبة على إيواء الشريد وإعداده دون العمل على تجنيبه ما ساقه الى التشرد .

والذى نراه أن أول ما يجب أن يعنى به لرعاية الطفل هو رعاية والديه — ذلك بأن العامل الأكبر فى تشرد الصغار يرجع الى سوء حالة ذويهم الاجتماعية . ويكفى للتدليل على ذلك أن نشير الى احصاء قدمته السيدة برتا فهمى فى مؤتمر الطفل الذى نظمته رابطة الاصلاح الاجتماعى عام ١٩٣٧ إذ وجدت أن بين خمسين طفلا من أولاد الشوارع درست السيدة حالتهم وجدت أن ثلاثين بالمائة منهم كانوا ضحية الطلاق بين الوالدين كذلك وجدت أن عددا غير قليل تشردوا فى السبيل بسبب فساد أخلاق الوالدين أحدهما أو كليهما .

وإذا كان تصدع الكيان العائلى له أثره فى التشرد فالفقر عامل لا يقل أهمية عن تفكك الأسرة وإنما يهمل أكثر الاباء أولادهم ويقذفون بهم الى قارعة السبل حين يحيق بهم العوز ويعجزون عن الانفاق عليهم .

كذلك تبين من البحث أن لسوء المسكن صلة كبيرة باستهواء الطريق للطفل والركون اليه . ولعلك تعجب حين تعلم أن بعض الجمعيات التى تعنى بالاصلاح الاجتماعى فى أمريكا

قد اختصت نفسها بخدمة فريدة فى نوعها هى زخرفة بيوت الزنوج بألوان زاهية جذابة تحبب لهم البيت وتصرفهم وتصرف أولادهم عن غيره .

ثم إن هناك عوامل أخرى لها بعض الأثر فى تشرد الصغار منها ضعف الطفل لوجود عاهة عقلية أو جسمية وسوء حالة الأحداث المشتغلين بالمصانع بسبب كثرة ساعات العمل وتفاهة الأجر أو انعدامه فى غالب الأحيان مما يحدو بالصغير الى تفضيل اللعب بالطريق على تحمل الأذى فى عمل مرهق وغير مثمر ، ومن أسباب التشرد أيضا ترمل الأمهات واضطرار الكثيرات منهن الى مزاولة الخدمة بالمنازل التى لا ترحب عادة بابن الخادم أو الغسالة فتضطر المسكينة الى ترك ابنها بالطريق حيث يألف العيش فيه .

نرى مما تقدم أن لمشكلة الطفولة المشردة صلة كبيرة بمشكلاتنا الاجتماعية المختلفة . فالفقر والطلاق وتشغيل الأحداث فى أوضاع غير مناسبة واهمال العناية بالشواذ وبالضعاف وسوء المسكن وعدم كفالة أو معونة الأمهات المترملات كل هؤلاء ساعدت ولا نكون مغالين إذ قلنا أنها خلقت وأوجدت مشكلة الطفولة المشردة .

وصفوة القول أننا نرى فى العناية بحل هذه المشاكل وقاية للصغار وتجنيبا لتشردهم كما أننا لانشك فى أن خير علاج لمن تهددهم ظروفهم بالركون إلى السبل واستمراء حياة التشرد أن نعد لهم دورا على غرار دار كفالة الطفل التى جلوت أمرها .

يا رجال اليوم .

ان كشف الكنوز واستغلال المناجم واصلاح موات الأرض والافادة من الموارد الطبيعية كل هؤلاء لا يجدى فتيلا إذا هدمتم الجيل العامل فى غدكم — فلتكن عنايتكم الكبرى بأطفال أمتكم ، أبناء الفقراء فى شعب سواده الأعظم معدم فقير . اعتنوا بتلك الثروة القومية تفيدوا منها ما أفاد و يفيد غيركم ممن استناروا بادمغة العصاميين وانتهوا إلى الأخذ بسواعد أبناء المساكين — ولله در القائل :

كم طوى البؤس نفوسا لو رعت ... منبتا خصبا لكانت جوهرا
كم قضى العدم على موهبة ... فتوارت تحت أطباق الثرى

محمد عبد الكريم